

البيئة

تعريفها . قانونها . أقسامها . مظاهرها . آثارها في التربية

بيئة « السمك » الماء ، وبيئة « الطير » جو السماء ، وبيئة « النمل » باطن الأرض ، وبيئة « الإنسان » على ظهرها . ومادمنّا نتكلم في الأخلاق فالذى يهمنا هنا هو بيئة الإنسان لا بيئة غيره من مخلوقات الله : فبيئتك هي المنبع الثانى الذى تنبع منه أخلاقك ، وقد عرفت شيئاً عن المنبع الأول الذى هو الوراثة ، ووقفت على شاطئه فرأيت كيف ترث من أبويك اللون ، والطول ، والعرض ، والعادات ، والتقاليد . وعلى الجملة رأيت كيف ترث شيئاً من الصفات الفطرية ، والمكتسبة من والديك .

ونريد هنا أن نعرف شيئاً عن المنبع الثانى ، وأن نقف على شاطئه قليلاً لنرى كيف تتدفق منه صفات الإنسان وخلالها .

ترى فى مكان واحد جمعاً من الناس أحياناً : جنسهم واحد ، ودينهم واحد ، ولغتهم واحدة ، وتربيتهم واحدة ، فعلى أى شىء تراهم ؟

إنك لتراهم — تقريباً — على لون واحد ، وشكل واحد ، وزى واحد ، وعادات وتقاليد واحدة ، وإدراك الأمور يكاد يكون واحداً ، شعورهم واحد ، وأحاسيسهم واحدة ، وعواطفهم تكاد تكون واحدة . وعلى الجملة تضيق بينهم جداً دائرة الفروق ، وتتسع بينهم دائرة المتشابهات .

ولو أخرجت هؤلاء من هذا المكان وجئت بعدد آخر من جنسيات

مختلفة ، وبلدان مختلفة ، ودين مختلف ، وتربية مختلفة . فاذا ترى ؟
إنك لتراهم على خلاف كبير في ألوانهم ، وأشكالهم ، وأزيائهم ،
وإدراكهم ، وشعورهم ، وأحاسيسهم ، وعواطفهم ، إلى آخر ما تراه بينهم
في دائرة المتشابهات .

ولورجعت تفتش عن السبب فلا ترى — بعد الوراثية — إلا البيئة :
فالهواء ، والماء ، وجو السماء ، وشكل الأرض ، وما يكتنفها من جبال ،
وبحار ، وأنهار ، وسهول ، ووديان ، وقفار ، وما إلى ذلك من نظام
اجتماعي ، وسياسي ، واقتصادي ، وقضائي ، وديني ، وعائلي . وما تراه
في المدرسة ، والأصدقاء ، والأسفار ، والكتب ، والجرائد ، والمجلات ،
والسينما . كل ذلك يؤثر فيك ، ويكونك على نحو مخصوص . وكل ذلك
هو الذي جعل الفريق الأول في « دائرة المتشابهات » ، والثاني في
« دائرة الفروق » .

فالبيئة هي : « كل ما يحيط بك ، ويؤثر فيك ، بطريق مباشر ، أو غير
مباشر ، من يوم تكون جنينا في بطن أمك ، إلى أن تموت .

وقانونها : هو : « تكييف الكائن الحي نفسه حسبما يحيط به ليعيش » .
ترى الرجل « الإنجليزي » ، مثلاً يودع امرأته ، فيقبلها في طريق عام ،
والناس يرونه ، فلا يوجهون إليه أي شيء من لوم ، أو نقد ، بل ربما
تلومه هي ، أو يلومه قومه إذا لم يقبلها في مثل هذه المناسبة .

فهل يستطيع « رجل الأزهر » ، مثلاً أن يفعل كما يفعل ذلك الرجل
الإنجليزي . ولماذا ؟ إنه لا يستطيع لأن العوامل التي كونته من دين ،

وعادات ، وتقاليده ، لا تسمع له بهذا ولو كان هو يرى أن لا مانع عنده فلا يستطيع أيضاً ، لأنه يريد أن يكيف نفسه حسبما يحيط به ليعيش ، ولو قد فعل لأصابه « ضرر » وهو لا يريد له نفسه .

وترى غير الانجليزى أيضاً ممن تسمح لهم عاداتهم وتقاليدهم أن « يتأبط » ذراع امرأته ، أو حتى صديقته ، وفي فمه « البايب » يغشى بها الأندية العامة لا يلومه على ذلك أحد ممن يرونه ، ولا يستطيع أن يظهر كذلك « رجل أزهرى » ولو ظهر لسأله الناس بالسنة حداد . فالناس في كل زمان ومكان يكيفون سلوكهم حسبما تقتضيه العادات والتقاليد ليعيشوا ، فهم يطاوعونها ، أو على الأقل يتحايدونها انقاء لمساوتها اللهم إلا رجال الإصلاح الذين يسبقون زمانهم .

وترى الناس في المناطق الباردة يتقون البرد بوسائل الاستدفاء المختلفة العديدة . وفي المناطق الحارة يتقون الحر كذلك . كل ذلك ليعيشوا .

والبيئة تنقسم إلى قسمين :

١ — بيئة طبيعية .

٢ — بيئة اجتماعية .

والبيئة الطبيعية تطلق على مجموع ما في البقعة التي تعيش فيها من أرض ، وهواء ، وماء ، وسما ، وجبال ، وأنهار ، وسهول ، ووديان ، وقفار ، إلى آخر ما فيها مما يحيط بك ، ويؤثر فيك :

فأنت مثلاً على الأرض تعيش في كهف طبيعي أو في غاية نستظل بها ، أو تأخذ قطعة تضرب فيها فسطاطاً ، أو خيمة ، أو كوخاً ، أو تبني عليها منزلاً ، أو صرحاً ، وكل ذلك يؤثر فيك .

وهذه الأرض التي تعيش عليها تجود عليك بالخصب النباتي ،
أو لا تجود ، وتجود عليك بالمعادن المختلفة ، أو لا تجود ، . وتجود عليك
ببتترول ، أو أخشاب ، أو لا تجود .

وهذه الطبيعة تجود عليك بقوة تسخرها لتوليد الكهرباء ، أو لا تجود ،
وبقوة تسخرها في إدارة المطاحن ، أو لا تجود .

وهذه الشمس تجود عليك بحرارتها ونورها ، أو لا تجود . والهواء
يجود عليك بنسيمه وعليله ، أو لا يجود .

وهذه الجبال العالية ، والصخور الوعرة ، وهذا الجذب والقحط ،
وهذه الأنهار الجارية ، والبحار الرهيبية . وهذا المد والجزر ، وهذه
الوحوش الضواري ، والجراثيم المرضية . كل هذه الأشياء تؤثر فيك
تأثيراً قوياً ، أو ضعيفاً ، عالياً ، أو سافلاً حسبما يحيط بك من مؤثرات .
وكل هذه الأشياء من البيئة الطبيعية ، وهي عامل من أخطر العوامل في
تكوين المجتمع ، وفي إنمائه وارتقائه .

وإذا نظرت إلى هذه البيئة الطبيعية تراها هي السبب في أن توزع
السكان على سطح هذه الكرة الأرضية توزيعاً غير متعادل لا في العدد ،
ولا في الرقي .

أنظر إلى المدن الزراعية ، والتجارية ، والصناعية

تر الأولى تقوم في الأودية ، والسهول ، حول ضفاف الأنهار ، وفي
سفوح الجبال حيث تجري المياه ويكون الخصب .
والثانية على شواطئ البحار حيث تسكثر موانئ الملاحة لنقل المتاجر .

والثالثة حيث تكثر المعادن التى تلزم للصناعة .

وإذا رجعت إلى تاريخ المدنية ، والعمران ترى أن البلاد الأكثر اعتدالا ، والأخصب أرضاً ، والأقل جبالا ، كانت أسبق البلاد عمراناً ، وأكثرها تمدناً ، وقد تعاقب عليها أمم أكثر من سواها . وهذا هو السر فى تكون المدن ، والخواضر ، والقرى . وهو السر فى ازدحام بعض الجهات بالسكان ، وقلتهم فى غيرها .

وفى الهاية فإن البيئة الطبيعية لها أثر كبير فى تكوين الأخلاق قوة ، وضعفاً ، ورفعة ، وانضاعاً جسماً ، وعقلاً ، وخلقاً ، . حتى أن ابن خلدون يعقد فصلاً فى : «أثر الهواء فى أخلاق البشر» ، فيقول :

من خالق السودان على العموم الخفة ، وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص ، على كل توقيع . والسبب الصحيح فى ذلك أن طبيعة الفرح ، والسرور هى انتشار الروح الحيوانى ، وتفشيهِ ، وطبيعة الحزن بالعكس ، وهو انقباضه ، وتكاثفه ، وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء ، والبخار ، مخلخلة — شىء متخلخل غير متضام — له زائدة فى كميته ، ولهذا يجد المنتشى من الفرح ، والسرور ما لا يعبر عنه ، وذلك بما يداخل بخار الروح فى القلب من الحرارة الغريزية التى تبعثها سورة الحر فى الروح من مزاجه ، فيتفشى الروح ، وتجيء طبيعة الفرح ، وكذلك تجد المتنعمين بالحمامات ، إذا تنفسوا فى هوائها ، واتصلت حرارة الهواء فى أرواحهم ، فتسخنت لذلك ، حدث لهم فرح ، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ ، عن السرور . ولما كان السودان ساكنين فى الإقليم الحار ، واستولى الحر

على أمزجتهم ، وفي أصل تكوينهم ، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة ابدانهم ، وأقليمهم ، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حرا ، فتكون أكثر نفثيا ، فأسرع فرحا ، وسرورا ، وأكثر انبساطا . وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية ، لما كان هوائها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء البحر ، وأشعته ، كانت حصتهم من نوابع الحرارة في الفرح ، والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة . وقد تجد يسيرا من ذلك في أهل البلاد الجزيرية ، من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها ، وفي هوائها لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف ، والتلول ، واعتبر ذلك أيضا بأهل مصر ، فأنها في مثل عرض البلاد الجزيرية ، أو قريبا منها . كيف غلب الفرح عليهم ، والخفة ، والغفلة عن العواقب ، حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ، ولا شهرهم ، وعامة ما كلهم من أسواقهم . ولما كانت « فاس » من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين لإطراق الخزن ، وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى أن الرجل منهم لا يدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ، ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ مدخره ، وتتبع ذلك في الأقاليم ، والبلدان تجده في الأخلاق أثرا من كيفيات الهواء ، والله الخلاق العليم .

ويقول في « اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع ، وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أيدان البشر وأخلاقهم » يقول :

إن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ، ولا كل سكانها

في رغد من العيش ، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش ، من الحبوب ،
والأدم ، والحنطة ، والفواكه . لزكاة المنابت ، واعتدال الطينة ، ووفور
ال عمران ، وفيها الأرض الحرّة التي لا تنبت زرعاً ، ولا عشباً ، فسكانها
في شظف من العيش ، مثل أهل الحجاز ، وجنوب اليمن ، ومثل المسلسّمين
من « صنهاجة » الساكنين بصحراء المغرب ، وأطراف الرمال فيما بين البربر
والسودان ، فإن هؤلاء يفقدون الحبوب ، والأدم جملة ، وإنما أغذيتهم ،
وأقواتهم الألبان ، واللحوم ، ومثل العرب أيضاً الجائلين في القفار ، فإنهم
وإن كانوا يأخذون الحبوب ، والأدم من التلول إلا أن ذلك في الأحياء
لا يتوصلون منه إلا إلى سد الحلة ، أو دونها ، فضلاً عن الرغد ، والخصب
وتجدّم يقتضرون في غالب أحوالهم على الألبان ، وتعوضهم عن الحنطة
أحسن معاض ، وتجد مع ذلك هؤلاء الناقدين للحبوب ، والأدم من أهل
القفار أحسن حالا في جسومهم ، وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في
العيش ، فألوانهم أصفى ، وأبدانهم أنقى ، وأشكالهم أتم وأحسن ، وأخلاقهم
أبعد من الانحراف ، وأذهانهم أثبت في المعارف ، والإدراكات . هذا
أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم ، والسبب في ذلك أن كثرة الأغذية ،
ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها كثرة الأخلاط الفاسدة
ويتبع ذلك انكساف الألوان ، وقبح الأشكال من كثرة اللحم ، وتغطي
الرطوبات على الأذهان ، والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبجرتها
الرديئة ، فتجىء البلاد ، والغفلة ، والانحراف عن الاعتدال . (١)

لكن : هل البيئة الطبيعية تتغير تغيرا ذاتيا ، أو لا تتغير ؟
يقول الاستاذ « نقولا الحداد » ، في كتابه - علم الاجتماع ^(١) - قد
تتغير البيئة لنفسها تغيرا بطيئا كأن تصبح أشد بردا ، وأكثر مطرا لعوامل
طبيعية مختلفة ، كما يقال إنه حدث فرق في طقس مصر بين عهدها الأول ،
وعهدها منذ عشرات من السنين ، وهذا التغير قد لا يحسب حسابه :
وقد يحدث فيها تغيير^م بسبب عوامل اجتماعية ، كأن تكون غير
معمورة قليلة الزرع والضرع ، وقليلة الأشجار ، والفلال ، فتصبح عامرة
تحتفر فيها الترع ، ويتسع نطاق الري ، فكثير الرطوبة في جوها كما حدث في
مصر ، أو قد يكون العكس كما حدث في لبنان . إذ كانت قممها ، وجبالها ،
وآكامها ، مكسوة بغابات الأرز ، والصنوبر ، والسنديان ، فأصبحت عارية
منها . كل ذلك يؤثر في تطور الأمة ، والجماعة .

كذلك كان الأمر في أسافل السودان ، وفي أمريكا ، وأستراليا ، فقد
غير العمران الإنساني بيئتها تغيرا عظيما ، وارتد فعل ذلك العمران البيئي
للجماعة ، فأثر في تطورها تأثيرا كبيرا . فملك البلاد التي كانت مهد الهمجية ،
والتوحش ، وكانت موطننا الوحوش الضواري ، والحيوانات العديدة
الأصناف ، والغابات الغضة ، أصبحت الآن موطننا للمدينة الراقية ،
وانقرض منها كثير من الحيوانات ، وقل عديد البعض ، وتحولت غاباتها
إلى أراض زراعية . كان معظم الذين هاجروا إليها واستعمروها في بدء
الأمر من أدنى طبقات الأمم ، فأصبحوا من أرقى الطبقات . ذهبوا إليها
وهم على جهل ، فإذا هم الآن ينشرون العلم على الأمم .

وليس آبار « البترول » عنك بعيدة في « جزيرة العرب » ، أو في « الكويت » هذه التي أصبحت من أغنى بلاد العالم بعد أن كانت من أفقرها لذلك ننتظر خيرا على أيدي قادة ثورتنا الأبطال ، فقد أخذوا يغيرون البيئة في مصر بزرع الغابات ، وتصنيع البلاد . ولا شك في أن ذلك سيمنحنا قوة تنسلك بها في هذا النزاع على البقاء .

ولولم يكن الإنسان قادرا على تغيير البيئة الطبيعية بسبب العوامل الاجتماعية لما استطاع أن ينتشر على سطح هذه الكرة الأرضية على هذا النحو الذي تراه ، بل لانقرض في موطنه الأصلي القديم ، كما انقرض غيره من الحيوانات .

منذ أيام سمعت إذاعة أجنبية تليء العالم فتقول : سيتم استخراج كذا ألف طن من الحديد ، وكذا من الفسفور ، وغيرها من المعادن التي هي أساس الصناعات في العالم بأمسه ، فجرت هذه الإذاعة — إن صححت — إلى ذهني أن هذه الصحراء نفسها — « النقب » — التي تستخرج منها هذه الثروة المعدنية الطائلة الهائلة كانت تحت أيدي غير هؤلاء الكاشفين من يوم أن عرف الكشف عن مثل هذه المعادن في العالم ، ولم يتيسر لهم من الوسائل ما به يستخرجون هذه الكنوز المطمورة في باطن هذه الصحراء : فساءلت نفسي عن السر في نشاط الأمم وخمولها . وهل مجرد وجود الأمة على أرض « حرّة » في الظاهر يكفي لأن يُضرب عليها الخمول أبدا الأبد ؟ لا بد من أن يعيش الناس على أساس « الفكرة العلمية » فالعلم « نور » ، العالم بالكهرباء ، وامتنطى بالطائرة متن الهواء ، وعبد الأرض وغاص في

الماء إنه سيطر على كثير من موارد الطبيعة ، وسخر قواها ، وذل صعاها
وحا المسافات بين الأفراد بالاتصال السلكى واللاسلكى إلى ما هنالك مما
يحفل العالم به من نتائج العلم وكشوفه ، وغرائبه وتطبيقاته

« وبعد »

فإن البيئة الطبيعية لها أثرها فى الأخلاق من ناحية الجو ليس فى ذلك من
شك ، ومن ناحية غيره أيضا إلا أن هذا الغير يمكن التغلب عليه إذا عاش
سكانها على أساس « الفكرة العلمية » أما الجو فأمره عند الخلاق العليم .

ومن بدرى ١١١٩

٢ - البيت الاجتماعي :

يقول « تولستوى » (١) : « ليس الكمال الذى يبلغه المرء ما يهمنى ، بل الطريقة التى يبلغه بها . . . »

(١) هو : « ليون تولستوى » أديب ، ومفكر روسى ، ينعت « مكسيم جوركى » — أديب ، ومفكر روسى أيضا — بأنه « إنسان الانسانية » توفى فى سنة ١٩١٠ عن ٨٢ عاما . عاش ثلاثين عاما من العشرين حتى الخمسين فى خلق مؤلفاته . وباقي من عمره من خمسين حتى الوفاة لم يحى إلا كى يعرف « معنى الحياة » ويفهمه . وكان يقول لا يستطيع الإنسان أن يقرب من الله إلا وحيدا .
لذلك كان يرى أنه لا يستطيع فى وسط « الأهواء » و « الأطماع » و « البغض » و « الاضطراب » أن يؤلف أثره الفنى الأخير « كمال موته » فانبثقت من أعماق شعوره فكرة توجب عليه إذا أراد أن يباغ درجة الكمال أن يفعل ما يطلبه « الإنجيل » فيترك امرأته ، وأولاده ويتنازل عن « الملكية » و « الربح » كى يبلغ القداسة ، ويرتفع إليها . فهرب مرات : الأولى عام ١٨٨٤ لىكن القوة أعوزته فى منتصف الطريق فأجبر نفسه على الرجوع إلى قرب زوجته التى كانت تعاني عندئذ آلام الخاض ، والتى أعطته فى تلك الليلة بالذات ابنة جديدة هى « الكسندرا » . والثانية فى سنة ١٨٩٧ ذهب تاركا لزوجته رسالة فيها . . . إن الأولاد قد كبروا الآن ، فلم يعد وجودى فى الدار ضروريا بعد اليوم . . . إن أهم شىء أن نتشبه بالهنود الذين يهربون فى الغابات عندما يبلغون الستين من عمرهم ، فكل رجل دينى يشعر عندما يباغ عتبة الشيخوخة بالرغبة فى وقف سنواته الأخيرة على الله وحده ، وليس على « التسلية » و « اللعب » و « الثروة » الفارغة .
ولكنه رجع فى هذه المرة أيضا . وفى سنة ١٩١٠ لما وجد زوجته تفقد من ورائه فى مذكراته هرب ولم يعد إليها .

كان من عادته أن « ينظف » حجرة نومه بنفسه كل صباح . ومن كلماته « كى يؤمن الإنسان بالخالود لا بد له أن يعيش على هذه الأرض حياة خالده »

فما هي الطريقة التي يبلغ الإنسان بها كماله ؟
إن كمال الإنسان يأتي معلولا لعلة مركبة بعضها طبيعي كما قدمنا ، وبعضها
غير طبيعي كما ستري .

لكن ما الفرق أولا بين ما هو طبيعي ، وما هو غير طبيعي ؟
الشيء الطبيعي هو الذي يكون متمشيا على سنة الطبيعة وحدها ، وغير
الطبيعي هو الذي تتسلط عليه إرادة العقل البشري ، وتسيطر عليه .
مثلا : جمال « البدوية » ، طبيعي . وجمال « الحضرية » ، المتطرية بـ « البدرة » ،
في وجهها ، و « الأحمر » ، في شفاهها ، و « المانكير » ، في أظافرها ، صناعي .
ومجرى النهر الطبيعي ، والقناة الصناعية ، والكهف ، أو المغارة مأوى
طبيعي ، والبيت مأوى صناعي . وهكذا كل ما لم تندخل فيه إلا الطبيعة
وحدها فهو طبيعي ، وما تسلطت عليه إرادة العقل البشري ، وتسيطر
عليه فهو غير طبيعي .

وإذا كان الإنسان يتأثر بما يحيط به من مظاهر « البيئة الطبيعية » ، يتأثر
بالهواء ، والماء ، والسماء ، والجبال ، والبحار ، والأنهار ، والسهول ،
والوديان ، والقفار ، من كل ما هو طبيعي ، فإنه ليتأثر كذلك بما يحيط به
من مظاهر « البيئة الاجتماعية » ، فيتأثر أولا ببطن الأم ، فالمنزل ، فالمدرسة ،
ثم الأصدقاء ، والكتب ، والجرائد ، والمجلات ، و « السينما » ، والأسفار ،
والقوانين ، والنظم ، إلى آخر ما يدخل في دائرة ما تدخلت فيه إرادة العقل
البشري ، وتسلطت عليه .

والإنسان يوم كان حيوانا لم يتمدن بعد ، أو يوم كان إنسانا همجيا

متوحشاً كان يجاهد لأجل ضروريات الحياة الحيوانية فقط من أكل ،
وشرب ، ولبس ، ودفاع عن النفس . فكان مصدر رزقه في الطبيعة ، ومن
الطبيعة وحدها : يسكن الكهوف ، ويلبس الجلود ، ويصطاد ما يأكله .
ولما تمدن ، أو ضنت عليه الطبيعة برزقه أخذ يجرها إلى ما يشبع رغباته .
حيث لم يعد يقتصر على أن يعيش وحسب ، بل أصبح في حاجة إلى أن يغذى
عقله ، فقلبه ، ثم ذوقه .

وإذا كان الإنسان يتأثر بالبيئة الطبيعية ، وبالبيئة الاجتماعية ، فأيهما
أشد أثراً في تطوره ، وتقدمه ؟

البيئة الاجتماعية أعظم أثراً ، وأشد فاعلية في رقي المجتمع والسير به
إلى الأمام بأسرع مما تسيرها به العوامل الطبيعية . ذلك أن العوامل الطبيعية
جامدة على حال واحدة ، وأما العوامل الاجتماعية فهي ثمرة العقل الإنساني .
وهو كما ترى قد استطاع أن يغير في الطبيعة نفسها فهد الصحراء القاحلة
للزراعة ، وفتح الأقنية للرى ، ووصل البحار بعضها ببعض ، ومهد الطرق
لنقل ، وبنى المنازل والسفن ، ومد السكك الحديدية ، والأسلاك «التلغرافية» ،
وأخيراً اهتدى إلى «الرادار» و«التلفزيون» وغير ذلك من الأشياء التي
لها الأثر في راحة الإنسان ، وأزالة مخاوفه ، ومتاعبه ، وإبعاده عن الألم ،
والاضطراب . وذلك طبعاً إذا استعملت في الخير ، أما إذا استعملت
في الشر فأنها تكون من غير شك مصدر ألم ، بل خراب ودمار ، وهنا
تنشأ الحية المفاجئة لبني الإنسان .

١ - وأول بيئة اجتماعية للطفل بطن أمه ففيها يأخذ أول غذاء له ،

وهذا الغذاء يتأثر بما يحيط بالأم : يتأثر بفرحها ، وبجزنها ، وبخوفها ، وبكل ما يحيط بها من مؤثرات .

ولذلك ينبغي أن تبدأ تربية الطفل من يوم يكون جنيناً في بطن أمه لا من يوم يولد كما كان يفهم بعض الناس . فالتجارب الحديثة التي أجراها العلماء ، ويجريونها كل يوم على النفس الانسانية تؤيد هذه النظرية كل التأييد .

وإليك مثالين اثنين يستدل منهما على « الاستعدادات » المختلفة التي تولد مع الطفل مثل « الخوف » و « الشهادة » و « الكسل » و « الغيرة » و « الحسد » وما إلى ذلك من الميل إلى عمل معين دون آخر . كل ذلك يأتي للطفل نتيجة انفعالات نفسية قامت بنفس الأم ، أو أثراً لأعمال كانت تأتينا أثناء الحمل .

(١) حدث أن « توماس هوين » — أحد زعماء الحركة الفكرية في إنجلترا في القرن السابع عشر — عاش طول حياته يشكو ألم « الانكماش » و « الخوف » ويعزوهما إلى انزعاج أمه عندما اقترب الأسطول الأسباني « أرمداء » من شواطئ إنجلترا ، وكان إذ ذاك جنيناً في بطن أمه .

(ب) « ماري ستيوارث » — بنت جاك الأول ملك إنجلترا — كانت قد تزوجت بفرنسوا الأول ملك فرنسا ، وتزلت بعد ذلك لسنة ، وعادت — في سنة ١٥٦٠ — إلى وطنها الأول ، واقتربت بابن عمها « هنري دارنلي » وكان أصغر منها سنّاً ، فظهر لها فيه ضعف أخلاقه ، وبنيتة ، فأبطأت في منحه امتيازات الملكية ، وحقوقها ، فاغتاظ ، واتهم في ذلك أحد أفراد حاشيتها ، ففتك به ذات يوم على مرأى منها ، فلم تلبث أن دبورت له

مكبدة لقي حتفه فيها ، ثم تزوجت من « القاتل » له . فغضبت عليها بلادها ، وزج بها لذلك في أعماق السجون ، وصادف أن مرت عليها هذه الأحوال ، وهي حامل في « جاك » الذي صار فيما بعد جاك الثاني ملك إنجلترا ، فكان لذلك جباناً يضرب بجبينه الأمثال ، حتى إنه كان يرتعد إذا رأى سيفاً يسلم من غمده أمامه (١) .

ومما يذكر بهذه المناسبة أني سمعت مرة من « قروية » بريف « الشرقية » تلوم ابناً لها على خوفه من مسألة ما ، وتعلم هذا الخوف بأنها وهي فيه « حبلى » قامت مذعورة على نار تأكل في البيت ، وتكاد تلتهمها هي الأخرى التهاما .

ومن طريف ما سمعته منها أيضاً تعليقا على هذه الحادثة أن ابناً هذا على خوفه « مبروك » لماذا ؟ لأنه هو الذي أيقظها من نومها بأن تحرك في بطنها — وكانت أول مرة له يتحرك — فاستيقظت ، فرأت النار ، فاستغاثت ، فأغاثها الجيران ، فكان ذلك سببا في نجاتها والبيت بما فيه ومن فيه .

فعلى الأمهات أن يقدرن هذا فيكثرن أثناء الحمل من مراقبة عواطفهن ، وأفكارهن ، والعمل على ضبطها بالتزام الهدوء والسكينة حتى لا يكدرن صفو الطفل في منبته ومستقرة .

وعلى الحكومة ، والجمعيات الخيرية ، وأغنياء الأمة أن يعملوا جميعا على أن تحاط الأمهات « الفقيرات » بكل أنواع العناية والرعاية مدة الحمل ، فسيأخذن من الغذاء ما يكفين ويتعدن عن كل ما يسبب لهن حزنا ،

(١) من كتاب في التريه والتعليم لاسْتاذنا أحمد فهمى العمروسى ص ٧٢، ٧٣

أو خوفاً ، أو اضطراباً ، وبخاصة . ما يكون منها على درجة قاسية .

وعلى جملة من القول على الأم أن تبتعد عن كل ما يعوق الدورة الدموية عند الطفل ويوقف نموه وعليها أن تقدر أنها أثناء الحمل إنما تبذر بزور الغرائز وتغرس أصول الاستعدادات والميول في نفس رجل الغد .

٢ - يأتي بعد بطن الأم دور المنزل ، ففيه يتعلم الطفل الأكل ، والشرب ، واللبس ، والمشى ، والنظام ، والنظافة ، والعمل ، والكلام إلى آخر ما يتعلمه فيه مما يكون به شخصاً اجتماعياً يندمج مع الناس بسرعة ، وسهولة ، وبساطة ، وبشر ، أو غير اجتماعي ، يفر منهم ، أو يهاهم ، ويخافهم ، ويخشاهم ، وعلى الجملة ينعكس على الطفل كل ، أو أغلب ما يراه في المنزل ، مما يظهر على والديه والمحيطين به من تعاطف ، وتراحم ، وقسوة وعزة وكرم ، أو شتم وإباء .

لذلك كان أول واجب على الأم إذا رزقت طفلاً أن تغذيه هي بلبنها إذا كانت صحيحة معافاه لأن لبنها هو الغذاء الطبيعي الوحيد ، وتعلم الأم أن إدخال لبن أجنبي في الأسرة معناه إدخال دم أجنبي فيها ، وورثة أجنبية كذلك ، وإذا كان ولا بد من مرضعة فلتختبر درجة ذكائها ، وميولها ، وعاداتها ، وأخلاقها مما يؤثر في الطفل جسماً ، وعقلاً ، وقلباً ،

يقول « سينسر » في أهمية الغذاء ، واختيار الأغذية ، ومعرفة القيمة الغذائية لكل طعام ، والوقوف على أسرعها هضمًا ، وأنسبها لتركيب الأجسام مع مراعاة البيئة التي يعيش فيها الإنسان ، والأعمال اليومية التي تفرض عليه يقول : « إن الأم ذات السيادة ، والسيطرة ،

هى التى تعرف كيف تتغذى ، (١) .

ويقول أستاذى الجليل احمد لطفى السيد : « إن الإنسان يطحن عمره تحت أنيابه » يعنون بذلك أن الطفل ينمو بالغذاء المناسب المنظم ، ويضعف بالسير على غير هدى فى اختيار الغذاء ، وتحديد كميته حيث ينشأ عنه الأمراض باضطراب الجهاز الهضمى .

والهواء النقي غذاء ضرورى للطفل كاللبن وغيره من الأطعمة الأخرى فعلى الأبوين أن يروضا طفلهما كل يوم فى الهواء الطلق ، والشمس المشرقة والحضرة اليانعة ، وأن يباشرا ذلك بأنفسهما ، مباشرة تحفظه من عبث المربيات .

وإذا كان الطفل فى الأسرة يتأثر بالغذاء ، فانه ليتأثر أيضا بما يرى ويسمع لمرونته وقابليته السريعة لأن تطبع فى ذهنه صور الأشياء ، ويحفظ فى مخه عدد عظيم من الألفاظ والعبارات

إن الطفل ليقلد تقليدا محكما كل ما يصدر عن والديه والمحيطين به : فابتسامته الأولى تقليد ، وإشارته تقليد ، وألفاظه وعباراته تقليد ، ومشيه تقليد ، وكل حركاته ، وسكناته نتيجة تفاعل بينه وبين من معه فى بيئته ، ولقد أحسن من شبه الطفل فى سنيه الأولى بآلة التسجيل ، بل إنه ليفوقها تسجيلا : ذلك أن هذه الآلة تسجل الصوت فقط ، أما هو فيسجل الصوت وغيره من حركات وإشارات . . . لذلك كان الواجب ألا يسمع الطفل من « الألفاظ والعبارات » إلا ما يرتفع به إلى السمو الخالق . ومن هنا نعلم

(١) المصدر السابق ص ٧٤

مقدار ما يحى به على الطفل من تلك المنازعات ، والمخاضات الزوجية أمام الأطفال .

وإذا كانت هذه طريقة سلبية في تربية الطفل ، فهناك أيضا طريقة إيجابية على الأبوين أن يسلكاها معه ، وهي أن يبتثا في نفوس أبنائهما الفضائل الخلقية الأساسية التي تقوم حائلا منيعا أمام رغائب النفس وشهواتها النازلة وأن الواجب على الأم ليتضاعف في هذه الناحية أكثر لأنها تلامزمه في المنزل ، أكثر من ملازمة الأب له

ويرحم الله «معروف الرصافي» فله في هذا المعنى أفكار سجلها في قصيدته «التربية والأمهات» .

ولعل من الخير أن نذكرها في هذا الباب كما ذكرنا قصيدته «العالم شعر» في موضوع صلة الأخلاق بعلم الجمال . ففيها أفكار تجعلها من عيون الشعر الخالد .

التربية والأمهات

هي الأخلاقُ تَنْبُتُ كالنباتِ
إذا سُقِيَتْ بِماءِ الْمَكْرُمَاتِ
تَقُومُ إِذَا تَعَمَّدَهَا الْمُرَبِّي
عَلَى سَاقِ الْفَضِيلَةِ مُشْمِرَاتٍ
وَتَسْمُو لِلْمَكَارِمِ بِانْسِقَاقٍ ،
كَأَنَّسَقَتْ أَنْيَابُ الْقَنَاقَةِ (١)
وَتُسْنَعِشُ مِنْ صَمِيمِ الْمَجْدِ رُوحاً
بَازْهَارِهَا مُتَضَوِّعَاتُ
وَلَمْ أَرَ لِلْخِلَاقِ مِنْ مَحَلٍّ
يَهْدِيهَا كَحِضْنِ الْأُمَمَاتِ
فَحِضْنُ الْأُمِّ مَدْرَسَةٌ تَسَامَتْ
بِتَرْبِيَةِ الْبَنِينَ أَوْ الْبَنَاتِ
وَأَخْلَاقُ الْوَلَدِ تُقَاسُ حُسْنًا
بِأَخْلَاقِ النِّسَاءِ الْوَالِدَاتِ

(١) القنابة : الرمح .

وليس ربيبٌ عاليةِ المزايا
كمثل ربيبٍ سافلةِ الصفات
وليس النبتُ ينبتُ في جِنَانٍ
كمثل النبتِ ينبتُ في الغَلَاةِ

* * *

فيا صدرَ الفتاةِ رَحِبتَ صدرًا ،
فأنتَ مَقَرُّ أَسْنَى العاطفات
نراك ، إذا ضُمَّتَ الطفلَ ، لَوُحًا
يفوقُ جميعَ ألواحِ الحياةِ
إذا استندَ الوليدُ عليك لاحتِ
تصاوِيرُ الحَنَانِ مصوَّراتِ
لأخلاقِ الصَّبِيِّ بكِ انعكاسٌ ،
كما انعكسَ الخيالُ على المرآةِ
وما ضَرَبَانُ قلبِكَ غيرَ درسِ
لِلتَّائِبِينَ الْخِصَالِ الْفَاضِلَاتِ
فأَوَّلُ درسِ تَهْذِيبِ السَّجَايَا
يكونُ عليك يا صدرَ الفتاةِ
فكيف تظنُّ بالأبناءِ خيرًا ،
إذا نَشَارَا بِحُضْنِ الْجَاهِلَاتِ ؟

وهل يرجى لأطفالٍ كال^١ ،
إذا ارتضعوا ثدي^٢ الناقصات ؟
فما للأُمَّهات جهان ، حتى
أنسين بكل طيّاش الحصاة^(١)
حنّونَ على الرضيع بغير علم ،
فضاع حُنُو^٣ تلك المُرَضعات

* * *

أأمّ المؤمنين إليك نشكو
مصيبتنا بجهل المؤمنات
فلك مصيبة^٤ يا أمّ منها
نكاد نغصّ بالماء الفُرات ،^(٢)
تخذنا بعدك العادات ديناً ،
فاشقى المسلمون المسلمات
فقد سلكوا بهنّ سبيل خسر^٥ ،
وصدّوهنّ عن سبيل الحياة
بحيثُ لزمن قعر البيت حتى

(١) الحصاة : العقل والرأى .

(٢) أمنا : أي عائشة أم المؤمنين ، وعرفت بالعلم والذكاء . الفرات : العذب .

نزلَ به بمنزلة الأداة (١)
 وعدَّوهنَّ أضعف من ذُبابٍ
 بلا جُنحٍ ، وأهونَ من شذاة (٢)
 وقالوا : شرَّعةُ الإسلامِ تقضي
 بتفضيلِ « الذين » على « اللواتي »
 وقالوا : إنَّ معنى العلمِ شيءٌ
 تضيق به صدورُ الغانياتِ
 وقالوا : الجاهلاتُ أعفُ نفْساً
 عن الفَحْشا من المتعلِّماتِ
 لقد كَذَّبوا على الإسلامِ كذباً ،
 تزولُ الشَّمُّ منه مُزَكِّزاتُ
 أليس العلمُ في الإسلامِ فَرْضاً
 على أبنائه وعلى البناتِ ؟
 وكانت أُمَّناً في العلمِ بجرأ
 تحلُّ لسانِليسا المُشكِلاتِ
 وعلمَها النبيُّ أَجَلَ علمٍ ،

(١) الأداة : الآلة .

(٢) جنح : أراد به جمع جناح ، وهو غير وارد . الشذاة : الشيء الخلق البالي .

فَكَانَتْ مِنْ أَجَلِّ الْعَالَمَاتِ
لِذَا قَالَ : ارْجِعُوا أَبْدَأْ إِلَيْهَا
بِثُلَاثِي دِينِكُمْ ذِي الْبَيِّنَاتِ
وَكَانَ الْعِلْمُ تَلْقِينًا ، فَأَمْسَى
يُحْصَلُ بِانْتِيَابِ الْمَدْرَسَاتِ
وَبِالتَّقْرِيرِ مِنْ كُتُبِ ضِحَامِ ،
وَبِالقَلَمِ الْمُحَمَّدِ مِنْ الدَّوَاةِ
أَلَمْ نَرَ فِي الْحَسَنِ الْغَيْدِ قَبِيلًا
أَوَانِسَ كَاتِبَاتِ شَاعِرَاتِ ؟
وَقَدْ كَانَتْ نِسَاءُ الْقَوْمِ قَدَمًا
يَرْحُنَ إِلَى الْحُرُوبِ مَعَ الْغُرَاةِ
يَكُنَّ لَهُمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ عَوْنًا ،
وَيَضْمِدُنَ الْجُرُوحَ الدَّامِيَاتِ
وَكَمْ مِنْهُنَّ مَنْ أُسِرَتْ وَذَاقَتْ
عَذَابَ الْهُونِ فِي أَسْرِ الْعُدَاةِ
فَإِذَا الْيَوْمَ ضَرَّ لَوْ التَّفَتْنَا
إِلَى أَسْلَافِنَا بَعْضَ التَّفَاتِ
فَهَمْ سَارُوا بِتَهْنِجِ هُدًى ، وَسِرْنَا

بِمِنْهَاجِ التَّفَرُّقِ وَالشَّتَاتِ
 نَرَى جَهْلَ الْفِتَاةِ لَهَا عَفَافًا ،
 كَانَ الْجَهْلُ حِصْنًا لِلْفِتَاةِ
 وَنَحْتَقِرُ الْخَلَائِلَ لَا لِجُرْمٍ ،
 فَتَوَذِينَ أَنْوَاعَ الْأَذَاةِ (١)
 وَنُلْزِمَنَّ قَعَرَ الْبَيْتِ قَهْرًا ،
 وَنَحْسِبَنَّ فِيهِ مِنَ الْهِنَاتِ (٢)
 لَسْنًا وَأَذُوا الْبَنَاتِ فَقَدْ قَهَرْنَا
 جَمِيعَ نِسَائِنَا قَبْلَ الْمَمَاتِ (٣)
 حَبِيبَاتُنَّ عَنْ طَلَبِ الْمَعَالِي ،
 فَعِشْنَ بِجَهْلٍ مُهْتَكَاتِ
 وَلَوْ عَدِمَتْ طِبَاعُ الْقَوْمِ لَوْثًا ،
 لَمَا غَدَتِ النِّسَاءُ مُحِبَّاتِ
 وَتَهَذِيبُ الرِّجَالِ أَجَلٌ شَرْطِ
 لَجْعَلِ نِسَاءَهُمْ مَتَهَذِّبَاتِ

(١) الخلائل : الزوجات .

(٢) الهنات : الأشياء اليسيرة .

(٣) وأد البنات : دفنها حية .

وما خُصَّ العَفِيفَةُ كَشْفُ وَجْهِ
بدا بينَ الأعْفَاءِ الأَثْبَاةِ
فِدَى خِلَافِ الأَعْرَابِ نَفْسِي ،
وإن وُصِفُوا لَدَيْنَا بِالْجُفَاةِ
فكم برزت بحجَّتِهم الغَوَانِي
حواسِرَ غيرِ ما مَتَرِيَّاتِ (١)
وكم خَشِفَ بِمَسَرِّعِهِمْ وَظِي
يَمُشُّ مَعَ الْجِدَايَةِ وَالْمَهْمَاةِ (٢)
ولولا الجَهْلُ نَمَّ ، لَقَلْتُ : مَرَحِي
لَمَنْ أَلْفُوا البَدَاوَةَ فِي الْفَلَاةِ (٣)

(١) حواسر : سافرات .

(٢) الخشف : ولد الطيبة . الجداية : الطيبة . المهامة : البقرة الوحشية .
والمراد : الشبان والشابات .

(٣) ثم : هناك . مرحي : كلمة تقال عند إصابة الشيء .

٣ - وإذا كانت مهمة « المنزل » ، أو الأسرة تنحصر أكثر ما تنحصر في التربية البدنية ، والخلقية فإن مهمة « المدرسة » ، لتنحصر أكثر ما تنحصر ، أو تعنى أكثر ما تعنى بالتربية العقلية .

يقول المربي الانجليزى « توماس أرتولد » : « إن التعجيل بالأطفال إلى طلب العلم ، وشحن قرائحهم بمسائل علمية لا يفهمونها ، قد يؤدي بغضاضتهم ونضرتهم ، ويطفىء فيهم البادرة ونور البديهة ، ولن يلاقى الأطفال في حياتهم الأولى وبالأشرا عليهم من سبق عقولهم لأبدانهم ،

وكان - وهو ناظر لأحدى المدارس - يرتع ويلعب مع تلاميذه الصغار ، ويخرج معهم فيترامون جميعاً بكرات الثلج ، ويسبحون في الماء ، ويتسابقون بالجذف بالزوارق . يقصد من ذلك أن يوجه تلاميذه إلى أن يقوى أجسامهم ، فسلامة النفوس تتوقف إلى حد بعيد على صحة الأجسام لذلك كان يقول : « إننا نرمى إلى خدمة الجسم ، وتقويته إلى أقصى حد مستطاع ، لا للتباهى به ، أو استخدامه في قضاء ما رُب شخصيته ، بل لغرض أسهى وأرفع ، هو حماية الضعيف ، ونصرة العدل في العالم أجمع ، وفتح الدنيا ، ووراثته الأرض ومن عليها . »

وفي هذا كان يقول أيضاً « عروة بن الزبير » ، لولده : « يا بني العبوا فان المروءة لا تكون إلا بعد اللعب . »

ويقول « أمبرسون » : « يجب على الإنسان أن يكون حيواناً قوياً إذا شاء ان يكون النجاح حليفه في هذه الحياة ، وأن الأمة التي تريد أن تتبوأ مقعد صدق بين الأمم الراقية يجب أن تتألف من أفراد كالحيوان بأساً وقوة ،^(١) .

(١) من كتاب « في التربية والتعليم لا ستاذنا احمد فهمى العمروسى » .

والذى أريد أن أخلص اليه من كل هذا أن دور « المدرسة » فى تربية العقل ينبغى أن يأتى فى سن مناسبة ، وأن أولئك الذين يجرون بأولادهم ، على المدارس ، يرجون أن يقبلوا وإن لم يبلغوا سنّاً مناسبة مخطئون ، وخير أن يؤسسوا أبناءهم بتربية أجسامهم ، وقلوبهم ، وأذواقهم ، وأن يتأخروا بعقولهم حتى تنضج الأجسام .

ومما يجدر بنا أن نلاحظه أن مدارسنا ومعاهدنا تعنى أكثر ما تعنى بحشو الذهن بالمعلومات ، وأن التلميذ لايهمه من أمر التعليم إلا أن ينجح آخر العام . أما الغاية من التعليم فأنا قد نحفظها ، ولا نسير على ضوئها .

إن الغاية من التربية والتعليم هى : « إعداد الطفل لأن يكون رجلاً كاملاً - بالإضافة إلى الذى له الكمال المطلق - جسماً ، وعقلاً ، وخلقاً ..
فهل نجحت المدرسة ، أو نجح الأساتذة فى صقل الأفراد أو أغلب الأفراد على هذه الغاية ؟ ١١١٩

واقع الأمر يقول : لا . ودليلنا على ذلك أن بلادنا لم تزل محتلة أرضها « بالمسكرى الأجنبى ، وعقلها بكثير من الأوهام والخرافات التى تبعدنا من أن « نفهم الحياة ، على وجهها الصحيح .

استعرض أمامك ما ترى « العقل ، قد وصل إليه من « مخترعات » فكم لنا فيها ، أو مالنا فيها ؟ ١١١٩

ولم لا ١١١٩ هل خلق عقلنا « ينفع ، دائماً ، ولا « يفعل ، أبداً المنطق الصحيح يقول : إن مدارسنا ، وأساتذتنا ، وبالتالى أسرتنا وإن نجحت بعض الشيء فى إصابة « الهدف ، من التربية ، والتعليم ، إلا أنها لم تزل عن الغاية بعيدة .

ثم ارجع إلى واقع الأمر مرة ثانية تر في مصر معسكرات ثلاثة .
كل منها يلون عقلية ، الفرد ، بلون يخالف اللون الآخر .

١ — التعليم الدينى له لون .

٢ — والتعليم المدنى لون .

٣ — والتعليم الأجنبى له لون آخر .

قد لا يضرب « التلوين » ، إذا نصبت « العقلية » فأصبحت قادرة على
أن تفهم ، وتفكر ، وتدرك ، وتقيس ، وتستنبط إلى آخر ما يحتاجه
« العقل » ، فى عملياته .

أما أن نأخذ فى « تلوينها » ولم تنضج بعد ، فى ذلك الخطر كل الخطر .
وسبيل إصابة الهدف من التربية والتعليم هو :

أولاً : أن نجيب إلى الطلاب « القراءة » .

ثانياً : أن نقضى على تلك الطريقة التى لا تخرج إلا « محافظ »
وأشباه متعلمين .

ثالثاً : أن نعمل على أن نخرج أناسا يحكمون أنفسهم ، ويعتمدون عليها
فى شق طريق لهم فى هذه الحياة .

رابعاً : أن نعمل على تضيق دائرة الفروق بين الأفراد ، وتوسيع
دائرة المتشابهات حتى يكون هناك « انسجام » بين الأفراد .

يجزع كثير منا من « توحيد التعليم » فى المرحلة الأولى والثانية ، ولسكنى
أعيد ما ناديت به فى « مؤتمر التعليم » المنعقد فى القاهرة فى سنة ١٩٤٦ من أنى
أول من ينادى بتجديد نفسه تحت لواء « توحيد التعليم » على شرط

أن تقترب المعسكرات الأخرى من التعليم الدينى ، وليس العكس . فالحقل كما يقولون : بنموه ، ونسلط نزاعاته ، وتفرق خواطره كالبنجار يحتاج إلى أديم منيع وجسد متين يحمل ضغطته ، ويقاوم تسلطه ، وليس كالدين قوة فى هذا السبيل .

وعلى جملة من القول فالمدرسة عامل من عوامل البيئة الاجتماعية التى تؤثر فى « الأفراد » بنظمها ، وقوانينها ، وتقاليدها ، وبرامجها وبكل شيء فيها حتى « مكانها » وليس الفرض من التربية والتعليم أن نخرج « موظفين » بل الفرض أن نخرج سادة أحرار أكابر النفوس يتمتعون بالرأى والحرية فى كل ما يعرض عليهم من أعمال .

٤ - وإذا كانت « بطن الأم » و « المنزل » و « المدرسة » من العوامل التى تؤثر فى تكوين « الفرد » فإن هناك عاملا اجتماعيا آخر لا يقل أهمية عن هذه العوامل ذلك هو « الرفاق » أو « الأصدقاء » . ولأهمية هذا العامل أتوسع بكلمة عنه فأقول :

إن الصداقة من الأشياء الضرورية للإنسان فى هذه الحياة ، فالحياة لا تكون طيبة مقبولة ، إلا إذا عاش الإنسان مع ناس أخيار فضلاء ، وتمتع برؤية الأصدقاء النبلاء . وليس هناك من يقبل أن يعيش بلا أصدقاء ، مهما توفرت له أسباب السعادة ، ومهما واثته جميع الخيرات ، بل كلما كثر مال الإنسان وعز سلطانه ، وعظم جاهه ، شعر أكثر بحاجة إلى أصدقاء ، فيهم تمام النعمة ، ورؤية المرء أصدقاءه لذة ، فهم زينة فى الرخاء ، وعدة عند البلاء . والعجب ممن يألم من الحياة وله أصدقاء .

والشعور بالحاجة إلى « الصديق » من قانون الطبع ، فهو إحساس فطرى

لا بين الناس وحسب ، بل أيضاً في الطيور ، وفي أكثر الحيوانات التي يحب بعضها بعضاً .

والصدقة تأتى من التوافق في الطباع ، فلا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر ، فأشكال الناس كأجناس الطير ، فكل إنسان مع شكله كما أن كل طير مع جنسه . فالتوافق في الطبع شرط أساسى في الصدقة ، فإذا اصطحب اثنان حيناً وليس بينهما مناسبة ما فلا بد أن يتفرقا ، فالنفوس أشكال فما تشاكل منها اتفق ، وما تضاد منها اختلف . ويرى بعض أساتذة الحضارة أن الصدقة امتداد في حب الانسان لذاته حتى يشمل غيرها .

وعلى ذلك يكون الصديق في منزلة النفس بل صديقك هو نفسك مكرره .
سئل حكيم : ما الأصدقاء ؟ فقال : نفس واحدة في أجساد متفرقة .

وما أطيب قول الشاعر في هذا المعنى :

وجدتُ نفسك من نفسى بمنزلة هى المصافاة بين الماء والراح
وإذا كان التوافق في الطبع شرطاً أساسياً في الصدقة ، فكذلك قد يكون الاشتراك في أمر طارىء أو عاهة سبباً من أسباب الصدقة . رأى رجل مرة حمامة مع غراب ، فعجب من اتفاقهما وليس من جنس واحد ، فلما مشيا إذا هما أعرجان فقال : من هاهنا اتفقا .

واتخاذ الأصدقاء أمر حث عليه الشرائع . ورغب فيه الحكماء .

قال صلوات الله عليه : « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم ، وقال

على رضى الله عنه : « عليكم باقتناء الأخوان . فهم عدة في الدين والدنيا .
ألا ترى إلى قول الله عز وجل حكاية عن أهل النار في النار . فما لنا من
شافعين ولا صديق حميم . وقيل لأبقراط : ما أفضل ما يقتنى الإنسان ؟
فقال : « الصديق المخلص » وقد أحسن من قال : « إن الأخ الصالح خير لك
من نفسك لأن نفسك قد تأمرك بالسوء ، والأخ الصالح لا يأمرك إلا
بالخير . وإذا كانت الصداقة من الأشياء الضرورية للإنسان في هذه الحياة
وكان اتخاذ الأصدقاء أمراً مرغوباً فيه . فاحتيار الأصدقاء الأصفياء
أشد ضرورة وبخاصة للطلاب ومن في حكمه .

واختيار الصديق له طرق : منها أن ننظر إلى إخوانه فالإنسان
لا يصاحب إلا شكلة . قال صلوات الله عليه : المرء على دين خليله فلينظر
أمرؤ من يخال ، وقال رجل لآخر : قدمنا بلكم فعرفنا خياركم من شراركم
فلحق خيارنا بخياركم وشرارنا بشراركم فألف كل شكلة . الطريق الثانى :
أن تضع حسناته في كفة وسيئاته في كفة فأن رجحت الحسنات فصادقه
وإلا فابتعد عنه فإنه يجرئك بناره . الطريق الثالث : أن تغضب من تريد
أن تصطفيه لنفسك فإن ملك نفسه فاتخذة خليلاً .

لاتحمدن امرأ يرضيك ظاهره : واخبر مودته في العتب والغضب
الطريق الرابع : أن تنظر إلى عينه . فالعين عنوان القلب وهى شاهد الحب
والبغض فاستنطق العينون تعلم المكنون .

ألا إن عين المرء عنوان قلبه : تسخير عن أسرارهم شاء أم أبى

والصدقة على أنواع : فهناك صدقة أساسها المنفعة . ففلان وفلان صديقان . ولكن لماذا ؟ لأنهما يُصيّبان كسبا ومنفعة من هذه العلاقة المتبادلة . فهما صديقان لا يُحب كل منهما الآخر لذاته وشخصه . بل من أجل المنفعة والكسب . وهذه الصدقة التي أساسها المنفعة والخير الشخصي صدقة عامة . وهي صدقة لا تدوم أبداً بل تنقطع بغاية السهولة . وتندم بانعدام سببها . لأن الإنسان لا يستطيع دائماً أن ينفع صاحبه . بل هذا أمر خاضع للظروف والأحوال .. والظروف والأحوال تتغير من لحظة لأخرى .

وهناك صدقة أساسها وسببها الفضيلة . ففلان صديق فلان لا خير شخصي ولا لمنفعة ذاتية . وإنما يصادقه للفضيلة والخير العام . وهذه الصدقة للفضيلة هي صدقة الخاصة من الناس ، وهي الصدقة الوحيدة التي تستحق اسم الصدقة . وهي الصدقة الكاملة ، الباقية ، الشريفة بشرف سببها . وهذه هي التي ينبغي أن تسمى صدقة حقاً لأنها صدقة الناس الفضلاء الأخيار ، الذين يجب بعضهم بعضاً لا شيء إلا لأنهم أخيارٌ فضلاء ، وهذه هي الصدقة التي تربط قلوب الصديقين بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها لأنها صدقة موجودة في الأشخاص أنفسهم وأعيانهم لا في شيء خارج عنهم كما هي الحال في صدقة المنفعة .

وصدقة الفضيلة هي الصدقة التي يكمل بها الإيمان . قال النبي صلوات الله عليه : « من أحب الله ، وأعطى الله ، ومنع الله ، وأبغض الله ، فقد استكمل الإيمان . »

والصدقة حدود وواجبات . فما هو الواجب عليك لصديقك ؟

واجب عليك لصديقك أن تسدى المعروف إليه ، وتقدم إليه المعونة وبخاصة متى كان في حاجة إليها ولم يطلبها منك . واجب عليك لصديقك أن تحافظ على شعوره وإحساسه ، وأن تحفظه في غيبته فمن الناس من يسمع انتقاص صديق له فيميل به ضعفه إلى مجارة المتكلمين بل ربما انحدر معهم على صاحبه بانتقاصه . وهذا هو الصديق الجاهل « وعدو عاقل خير من صديق جاهل » وعلى جملة من القول تحب لصديقك ما تحب لنفسك ، وتكره له ما تكره لها ، ولاخير في صداقة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه .

وقد نظم بعض الشعراء حق الصديق على صديقه قال :

خليلى على منى ثلاث	واجبات أتيحها إخوانى
حفظه بالمغيب إن غاب عني	ولقاء بالبشر إن لاقاني
ثم بذلى لما حوته يميني	مسعداً في الخطوب أنى دعاني
هذه حالة الصديق فإن	حال فعندي عوائد الإحسان

وأخطر آفة تأكل الصداقة فلا تبقى ولا تذر . تلك هي آفة الكذب . ذلك أن الكذب يفقد ثقة الإنسان بالشخص الكذاب . والعلاقات التي بين الناس في حياتهم المشتركة سواء في الأقوال أم الأعمال أساسها الثقة . فإذا وجدت الثقة وجدت العلاقة . وإذا انعدمت الثقة انعدمت العلاقة ولا ثقة في كذوب ، وصدق من قال : « من قل صدقه قل صديقه ، بل قال بعض الحكماء : « إنما سمي الصديق صديقاً لصدقه فيما يدعيه لك ، فالصداقة بينها وبين الصدق ارتباط وثيق .

فأما أن تكون أخى بصدق	فأعرف منك غنى من سميني
ولأفاجتنبني واتخذني	عدواً أتقيك وتثميني

وقد اعتنى كثير من الأدباء بوضع دساتير للصدقة يعجبني منها دستور وضعه حكيم لابنه قال : « يا بني إن نازعتك نفسك إلى الرجال يوماً لحاجتك إليهم . فاصحب من إن صحبته زانك . وإن تخففت له صانك . وإن نزلت بك مؤنة مانك . وإن قلت صدق قولك . وإن صلت شدد صولك : يا بني : اصحب من إذا مددت إليه يدك لفضل مدها . وإن رأى منك حسنة عدها . وإن بدت منك ثلمة سددها . يا بني : اصحب من لا تأنيك منه البوائق — أى الشرور — ولا تختلف عليك منه الطرائق . ولا يخذلك عند الحقائق . » وبعد ، فهل للقارى أن يتدبر جيداً ما قلناه فى هذا الباب ليعرف كيف يختار الصديق ، وكيف سلوكه على ضوء هذا الدستور ؟

هـ — وإذا كانت « المدرسة » تعطيك نصيباً من العلم ، والعقل ، وتعطيك نصيباً من الشخصية الاجتماعية بوجودك ، فى مجتمع حى ، فأن « القراءة » ، وما فى حكمها من « السينما » ، و « الرحلات » ، و « الأسفار » ، لتعطيك هى الأخرى نصيباً من العلم ، ومن العقل ، والشخصية ، بوجودك فى مجتمع . ولكن . من أفكار من تقرأ ، ومن مناظر ما تتأمل ، وإن كتاب الكون لخير هاد ، وخير مرشد ، وخير مثقف فى هذه الناحية .

إن « القراءة » ، وما فى حكمها تقدم الوسائل اللازمة لتحقيق أغراضنا ، وإنك لنرى أذهان من يقرأون نيرة ، ومداركهم واسعة ، ونفوسهم ملوثة ثقة ، واطمئناناً يتزايد كلما زادت القراءة ، وزاد الاطلاع .

إن بعض الناس يعرف . كيف يقرأ ، ومتى يقرأ . ولماذا يقرأ ؟ فيستفيد ، ويفيد . وبعضهم لا يعرف . فيشتعب ويشتعب . وخير لا مثال هؤلاء ، أن يعرفوا أولاً . كيف ، ومتى ، ولماذا يقرآن ؟

يقول « رسكن » : « قد تقرأ كل ما في دار السكتب فتخرج منها على لا شيء . وقد تقرأ صحيفة واحدة من كتاب ، فتخرج بها عالماً ، يعني ، بذلك أن الأول قد لا يستفيد شيئاً لأنه لم يعرف كيف يقرأ » وأما الثاني فقد يخرج « بفكرة » واحدة تنير له طريق حياته ، وتسعده في أيامه . لأنه فهم منها « معنى الحياة » أو شيئاً عن معنى الحياة .

إن السعادة « معنى في النفس » هذه كلمة واحدة ، فانظر كيف تنير لك طريق الحياة إذا تدبرتها ، وتأملتها ، وفكرت فيها .

قد تكون مضطرب الأعصاب ساخطاً على الزمان ، وعلى المكان فتقرؤها ، أو مثلها ، فتشعر بصدر ينشرح ، ونفس تطمئن ، وأعصاب تهدأ ، فتنبقلب « الظلمة » أمامك « نورا » و « الضيق » « فرجا » و « الارتباك » « هدوا » لأنك بها شعرت بوجودك .

إن السعادة « معنى في نفسك أنت لافي شئ خارج عنك ، وفي ذلك معنى الحياة . إن القراءة « تنور » الذهن ، وتوسع دائرة الثقافة ، فوق ما فيها من تسلية ومنتعة .

كان « أرسطو » ينور ذهن « الاسكندر » ويوسع ثقافته ، بالأدب مدروسا في « الشعراء » و « الخطباء » . وكان يلقنه « الأخلاق » ، مدروسة في « التقاليد » الاجتماعية ، وفي « الطبع » ، الإنساني ، ويعلمه « السياسة » في تجارب الأمم ، أو في « دساتير » الممالك المختلفة ^(١) هذا برنامج وضعه أستاذ من أساتذة الحضارة الأكرمين لتلميذ يعرفه العالم أجمع . فهل لك

(١) « تصدير » أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد لكتاب الأخلاق لأرسطوطاليس

أن تسير على ضوئه في « الأدب » وفي « الأخلاق » وفي « السياسة » ؟
أو بعبارة أخرى في « القراءة »

يقول الأستاذ ج. د. برنال ، — أستاذ الطبيعة بجامعة لندن —
في « رسالة العلم الاجتماعية » أثناء كلامه على « العلم في الشرق » يقول :
توقف مدى انتشار العلم في الدول غير الأوربية على الوضع السياسي ،
والنفوذ الاقتصادي الذي كان للدول الاستعمارية فيها . ويمكننا أي نرى
غاية الاختلاف في ذلك النفوذ بمقارنة الهند باليابان . فالتقاليد العلمية
في الهند قديمة ، وقد استمرت دون انقطاع تقريبا ، ولو أنها كانت قد ضعفت
أخيرا . وقد أدت بحوث الهند إلى تقدم كبير في « الرياضة » في العالم كله ،
وعند ما بسط الانجليز نفوذهم في الهند أدخلوا العلم الجديد « منفصلا »
كل الانفصال عن « القديم » فحدث انقسام في الجهة العلمية بين التقاليد
الوطنية القديمة ، والحضارة الأجنبية الحديثة ، وفضلا عن هذا كان نظام
التعليم الذي أدخله الانجليز لا يهتم بالعلم كثيرا (١) .

هذه مسألة وإن كانت بديهية لا تحتاج إلى « استشهاد » إلا أن قوتها
تأتي من ناحية « من يقولها » على « من يرتكبها » ومنها ترى أن « المستعمر »
دس إلينا « السم » ، لكن : لا في الطعام ، والشراب وإنما دسه إلينا

(١) ترجمة الأستاذين : إبراهيم حلمي عبد الرحمن . ومحمود طي فضلي .
والأستاذ « برنال » هذا ولد في أيرلندا عام ١٩٠١ وتلقى تعليمه العالي في كلية
« إيمانويل » بجامعة « كمبريدج » ثم تقلب في وظائف علمية إلى أن انتخب عضوا
بالجمعية الملكية بلندن ، ثم اختبر أستاذا للطبيعة بجامعة لندن ، وقد انتخب أخيراً
رئيساً لرابطة « المشتغلين بالعلم » في بريطانيا .

في « الأفكار والمعلومات » ، فتَجَهَّنَّا لقديمنا ، حتى كدنا نقطع الصلة بيننا وبينه .

لقد رأينا وسمعنا جيلا كان كل همه أن يهدم ، القديم وهذه « فكرة » ، استعمارية بشهادة « رئيس رابطة المشتغلين بالعلم في بريطانيا » .

أنا لا أقول : إن الجديد كله شر ، ولا أن القديم كله خير ، بل الخير والشر موجود في الجديد كما أنه موجود في القديم ، ولكن الذي لا يرضاه « عالم » ، أن تُنقطع الصلة بين القديم وبين الجديد ، وأن تبني حضارة البلاد على أساس لا يرتكز على « القديم » ، ولا يعرف إلا هذا الجديد . « المعرفة » ، التي يطلبها القارئ ، من : الكتب ، والجرائد ، والمجلات ، وما في حكم الكتب ، والجرائد ، والمجلات ، هذه « المعرفة » لا تعرف « التعصب » ، بل شيئا واحداً تعرفه هو « الحقيقة » ، ولو تتبعنا تاريخ نشوء « نظرية المعرفة » من عصر الفلاسفة القديمة أيام السوفسطائيين حتى العصور الحديثة لما وجدنا أحدث ما وصل إليه العقل البشري بشأنها إلا مسطوراً في كتابنا العزيز - القرآن الكريم - حيث يقول : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .

إن القرآن الكريم - في هذه الآية - ليدّعي إبداء الرأي على أساس الشك مع أنه يعتقد أنه على حق .

وهل وصلت نظرية المعرفة في جامعات العالم كلها ، أو بين فلاسفة العالم كلهم إلى أكثر من هذا ؟ ! ! !

إن الأبحاث التجريبية التي أدت إلى مذهب « الشك » ، كان فضل من

قاموا بها : أمثال « يكون - ١٦٢٦ - صاحب المنطق الحديث ، وأمثال « هوبز » - ١٦٧٩ ، و « جون لوك » - ١٧٠٤ - كان فضل هؤلاء ، وأمثال هؤلاء أن أيقظوا « الثوم » عن مثل هذه الآية الكريمة . . . والذي أريد أن أخلص إليه من هذا كله أن أدعو « القارئ » إلى أن لا يفصل ، الجديد عن القديم ، وإلى أن يقرأ في الجديد ، وفي القديم ، ألا يتعصب لا إلى هذا ، ولا إلى ذاك ، بل إلى « الحقيقة » من حيث هي ، وبذلك تكون « القراءة » وسيلة من وسائل التربية ، والتهديب ، والتعليم . وإذا كانت « القراءة » وسيلة ناجعة إلى « التثقيف » فإن « الرحلات » ، أو « الأسفار » هي الأخرى وسيلة تؤثر في تكوين ثقافتك وشخصيتك . ولذلك ترى القرآن الكريم يدعو إليها ويحث عليها في قوله تعالى : « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » ويقول : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » ويقول : « فَاْمشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُور » . ويقول صلوات الله عليه : « يا ابن آدم أحدث لي سفراً أحدث لك رزقا » ويقول : « سافروا تغضموا » بل إن الإسلام ليلفت « المستضعفين » الذين ركنوا إلى الضعف ، إلى تقوية أنفسهم عن طريق « الأسفار » أو عن طريق « الهجرة » فيقول : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ . قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ . قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ » ١١١٩ ، ثم انظر إليه يتوعدهم بسوء المصير فيقول : « فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » ثم يستثنى

من هذا الحكم فيقول : « إلا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُوَائِيكَ عَسَى اللَّهُ
أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا » .

وواقع الأمر أماننا يرينا أن الأمم « الرحالة » قد وصلت إلى درجة
لم تصل إليها بعد غيرها عن لا يزالون يرتبطون بالأرض .

فهل لنا أن نقفدى بهم ؟

وإذا كانت الأخلاق تنبع من الوراثة والبيئة وقد عرفنا ما هي الوراثة
وما هي البيئة . وكانت الأخلاق هي صورة النفس الباطنة والسلوك
هو صورتها الظاهرة فما هو هذا السلوك ؟